من تراب الطريق ! (٧٠٨)

ليبيا ، والخطر القادم إلينا [*] من هناك !

لا يمارى أحد ، ولا يمكن أن يمارى ، فى أن ما يجرى فى ليبيا يحمل أخطارًا لمصر سوف تكتوى بنارها أكثر من النار التى أشعلها فى ربوعنا . السلاح المهرب من ليبيا عبر الحدود وامتداد الصحراء ـ إلى مصر .

حين ينفرط عقد الدولة الليبية ، وقد بدأ سلسلة الانفراط ، ستنهار كافة أركان النظام بالمعنى العام ، وتصير ليبيا مرتعًا لداعش والقاعدة وشتى جماعات الإرهابيين التى أشاعت الفوضى والفساد فى ربوع البلاد ، وقادتها إلى حرب أهلية لا يرجى من بعدها خير ، لا لليبيا ولا لجاراتها ، مصر وتونس والجزائر !

وأنت لا بد تدرك قيمة ليبيا لمصر ، حين ترى أنها البوابة الغربية لغزو مصر والتى دل التاريخ على أنها منفذ المساس بأرض الكنانة ، غزوًا أو تأثيرًا .. وأدعو من يتشكك فى هذا الواقع أن يعيد قراءة عمليات القتال الهائلة ، والكر والفر ، التى جرت على ربوع مصر وليبيا ، بين جيوش الحلفاء وتتصدرها بريطانيا ، وبين جيوش المحور التى ضمت ألمانيا إلى جوار الجيش الإيطالى الذى بدأ محاولاته ـ من ليبيا ـ لغزو مصر ، نحو منتصف عام ١٩٤٠ . وكان الهدف فى كل العمليات هو مصر ، بين سعى الألمان والطليان لغزوها والاستيلاء على خيراتها للإمداد وخلافه ، وعلى قناة السويس

(*) المال فى ٢٥ /٨/ ٢٠١٤

للسيطرة على حركة التجارة والأساطيل ، وبين سعى الإنجليز للدفاع ، لذات الأسباب لما تمثله مصر من أهمية بالغة للامبراطورية البريطانية التى لم تكن تغرب عنها الشمس .

سوف ترى هذه المعارك حاضرة باهتمام فى خضم مذكرات ونستون تشرشل الداهية البريطانى الأريب عن الحرب العالمية الثانية ، فيكتب فى المجلد الأول عن «انتصار الصحراء» فى الحرب التى بدأت رحاها مع الطليان فى الشمال الأفريقى فى يونيو ١٩٤٠ ، وهدف الطرفين منها هو مصر، ثم فى فصل « جناح الصحراء : روميل . طبرق » وكيف تصاعدت المواجهات بالشمال الأفريقى بين بريطانيا وحلفائها ، وبين المحور الذى قذف فيه الألمان بقوات كبيرة تحت قيادة روميل ثعلب الصحراء ، وكيف كان قدوم هذه القوات بهذه القيادة ، نقلة فى العمليات ، طفق السياسى البريطانى العجوز فى استعراضها وبيان زواياها وخططها وتكتيكاتها ومراحلها ، ما بين الحدود المصرية وحتى طبرق بداخل الحدود الليبية ، ثم يعود تشرشل للكتابة حول أهمية هذا الصراع فى عدة فصول حتى عرض « لآخر مجهود الجنرال ويفل » الذى تلاه الجنرال أوكنيلك فى قيادة القوات البريطانية فى الشمال الأفريقى ، وكيف كان جل اهتمام رئيس الوزراء البريطانى وسط خضم الحرب العالمية ـ موجهًا إلى العمليات القادمة من الأرض الليبية التى تستهدف مصر ، وكيف كانت الاتصالات لا تنقطع بين لندن والقادة والسفارة بالقاهرة لإدارة هذا القتال ، والذى استوجب فيما بعد تعيين الجنرال أوكنيلك للقيادة ، ثم يكتب تشرشل كيف اقتضت الأمور مجيئه بنفسه إلى القاهرة بعد اندحار الجيش الثامن البريطانى، وتدمير معظمه

على يد الألمان ، ومن القاهرة حيث تدارس الموقف على الطبيعة فيها ، اتخذ تشرشل عدة قرارات كان من أهمها تعيين المارشال مونتجمرى لقيادة الجيش الإنجليزى ، وما صاحب وتلا ذلك من مراحل وقرارات تعبر عما أولته بريطانيا من اهتمام بهذا الغزو القادم إلى مصر من ليبيا ، حتى كانت معركة العلمين التى عقد لها ونستون تشرشل فصلاً مستقلاً من مذكراته الضخمة عن الحرب العالمية الثانية .

لم أشأ هنا أن أعرض لما كتبه باستفاضة واستراتيجية واسعة ـ مستشار الأمن القومى صاحب المقام الرفيع حافظ إسماعيل ـ مع زميلين له ـ عن هذه الحرب بكتابه الضافى عن الحرب العالمية الثانية فى البحر الأبيض المتوسط ، لأنى أردت أن أستشهد برؤية أجنبية عنا .. قدرت ما لليبيا من أهمية باعتبارها البوابة الغربية لمصر ، وتقديرها ما يمكن أن يأتيها منها من مخاطر فهمها وأنزلها قدرها أجانب لا يرتبطون بمصر ارتباط المصريين بوطنهم ومصيرهم .

لا مراء إذن فى أن ما يجرى فى ليبيا ، يؤثر على مصر ، وأن مصر سوف تكتوى بنيران صراعات ليبيا إذا ما انهارت أركان الدولة التى بدأت فعلاً فى الانهيار هناك !

لذلك فإن الانصراف والإشاحة عن ذلك عماء ، والإخلاد إلى أنه لا يخصنا قصور لا ينبع من رؤية واقعية صحيحة ، وحاصل ذلك أن التدخل واجب ، ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال !

ظنى أن القتال المباشر فى ليبيا عليه محاذير ، ومرفوض ، لأنه يجر مصر وجيشها إلى معركة لها عواقبها وآثارها غير الممكن تلافيها ، وقد كانت لنا تجربة غير حميدة حين انتقلت قواتنا إلى اليمن وانغمست فى القتال الدائر فيها، ولذلك فليس من الفطنة انتقال قواتنا للقتال فى ليبيا ، بيد أن هناك ما يتعين أداؤه دون الانغماس فى القتال هناك ، وذلك يقتضى خطة شاملة يجمعها ويربط بينها أن يكون لها تأثير فاعل بأسلوب غير مباشر ، سواء من خلال الاتصالات المؤثرة بالقوى الفاعلة المتصارعة فى ليبيا ، أو بالتصدى الحازم لمحاولات التسلل إلى مصر وتسريب الأسلحة إليها ، وبما هو أكثر حزمًا إذا ما تجاوزت نوايا وأفعال المتربصين بمصر إلى محاولة تهديد حدودها ونظامها.. حماية حدود مصر مسألة حياة لا غناء عنها ، وقد أتاحت الأسلحة الحديثة، وآلياتها ، وأساليب استخدامها ، ما يمكّن مصر من قمع أى تحرك معادٍ يأتى من هذا الاتجاه وتدمير وكشف عناصره وتشكيلاته وأفراده ، وتجفيف ينابيعه ، بضربات استباقية (على الحدود) يبيحها القانون الدولى ، وتستوجبها الحقوق والمصالح المصرية ، والأمن القومى .

لا نحبذ إرسال قوات مصرية للقتال فى ليبيا ، ولكن التصدى لهذا الخطر القادم إلينا من هناك واجب وضرورى ولازم ، ولن تعجز القيادة المصرية عن اتخاذ الأساليب والوسائل التى ألمحت إلى بعضها ، وهى بالقطع أكثر علمًا بها ، وأدرى بأساليب أخرى غيرها .

مصر فوق الجميع .